غادة السمان ، **رحيل المرافيء القديمة**
(منشورات دار الآداب ، بيروت ــ ١٩٧٣)

انها ليست المرة الاولى التي اقرأ غادة السمان . اتابعها منذ كنت أحشر مع زملائي الطلبة في أحد مقاعد ثانوية مدينتي . كانت غادة حينها رمزا لحبنا المستحيل ، نجد في كلمات رواياتها الجسر الذي نعبر فوقه علنا نصل الى ذلك الحب . هذا في الماضي . أما في مجموعة قصصها الاخيرة « رحيل المرافيء القديمة » لا بد من شهادة نسجلها لغادة ــ علما بأنها ليست بحاجة لمثل هذه الشهادة ، وانما نحن ــ وهي انها حققت قفزات نوعية ليس في وقاحتها النظة ، او شراستها المتفجرة ، او حريتها الحالمة وحسب ، وانما بدرجة التزامها السياسي والاجتماعي ايضا . انها في « رحيل المرافيء القديمة » تنقلب الوقاحة ــ كما يتصورها البعض عند غادة السمان ــ الى جرأة، والشراسة الى صلابة ، وتترجم حريتها الى الواقع ــ واقع ما بعد هزيمة حزيران (يونيو) ١٩٦٧ ــ الذي ينزف ابدا .

ان من يقرأ لغادة السمان يشعر وكأنه يلتقي مجددا مع انفعالاته الاولى تلك التي تثور من تأثير لحن موسيقي خاص ، ويجد نفسه يهذي من فعل هذا اللحن حتى يكاد يعتقد ان لوثة اصابته . ان قلمها مغني غريب يحمل في حنجرته غرائز ارض الواقع ، الارض المهجورة ، الارض التي هاجرها الانسان في غادة الى فينا (الدانوب الرمادي اول قصص المجموعة) ، ويدفن في قلبه انفعالات الاجساد المرتخية التي تدرك الارتعاشات اللامحدودة، وتتحفز في عقله رغبة قاتلة في مصارعة الاخرين الذين تحولوا الى جيف نتنة واستسلموا لغبار الافكار ــ لسياسة الامر الواقع ــ الذي يعمي بصرهم وبصيرتهم في آن ، وتتفجر في عضلاته قوة صاعقة للبطش بمن اصابهم استرخاء شبه ابدي مقيت بعد عملية تخدير كاملة رسمت نهايات فعاليتهم كقوى حية .

« رحيل المرافيء القديمة » ست قصص تتمم الواحدة منها الاخرى . وتنساب قصص المجموعة كلها في خيطين نسيج الثاني منها وتشعب بفعل وتأثير الخيط الاول : الاول سياسي والثاني اجتماعي . ويأتي هذا الانسياب في اخراج بديع تنقل غادة القارىء عبره من عالم واقع الانسان المزق الى عالم الماضي القريب ، عالم الاوهام ــ والالم . وبالاعتماد على هذا الاخراج البديع تقوم غادة السمان في أول قصص المجموعة (الدانوب الرمادي) بعملية مراجعة لجمل ممارسات ومفاهيم مذيعة جميلة ومواطنة ملتزمة جذابة (بطلة القصة)، وبتصوير خيبة الامل حين يصل اثرها الى الاعماق وانعكاسات هذه الخيبة على الانسان العربي وما تفعل به من تشويه وتمزيق . المذيعة الملتزمة هي الاعلام العربي قبل هزيمة حزيران (يونيو) ، وهي التي علمها والدها « **السفير ست لغات** » ، ولكنها بالرغم من ذلك تجد نفسها عاجزة « **عن التفاهم الكامل مع انسان واحد فقط ...** » ولذلك يتحرك الانسان المهزوم في المذيعة هاربا الى فيينا بعد أن اختارت المذيعة « المجيء اليها مع (جورجي) ــ صديقها ــ لانه اخرس ! » لقد دفعت مرارة الهزيمة الانسان في المذيعة للاصرار على التفاهم مع (جورجي) ومع سواه بلغة الاشارة . « لغة العصور الحجرية . لغة ما قبل اختراع اللغة والكذب والزيف ... » .

وتتابع غادة السمان عرضها المؤلم لمرارة الهزيمة ولدور الاعلام العربي الكبير الذي كذب وزيف وزور .. في أول قصص المجموعة « الدانوب الرمادي » ــ اذ لكل منا دانوبه ــ بازدواجية صبغت قصص المجموعة الست وتجرنا للدخول فيها دون اقتناع . فصوت المذيعة (بطلة القصة) « **ــ اجمل الاصوات الاذاعية كما كانوا يصفونه ــ كان اداة الجريمة .. كان فحيح الافعى ...** » وفي الايام الاولى لحرب حزيران (يونيو) ١٩٦٧ كانت تذيع انشودة « امجاد يا عرب امجاد » وكلها سعادة لانها تخيلت « **اخيها الفدائي ورفاقه الاخرين على مشارف القدس يدخلون نصفها المحتل ...** » عندما لاحظت اثناء اذاعة الانشودة « **وجوه الملايين التي كانت تجيء زجاج نافذة الستوديو تنصت للاخبار بعيونها الفضولية الطفولية الفاغرة قد تجعدت وهرمت الف سنة** » .

الرحلة مع غادة السمان الى دانوب (شتراوس) الرمادي ــ الذي هو دانوبها ــ هي رحلة هروبية